



أنوار السُّنة المُحمديَّة شرح رياض الصالحين (7) باب الصبر (١)

الشيخ أحمد السيد.

الفهرس

٤	المقدمة:
٤	باب الصبر:
٤	فوائد مستخلصة من فعل الإمام النووي - رحمه الله - في كتابه:
٤	أولاً: ترتيبه للأبواب:
٥	ثانياً: البدء بالآيات:
٥	تعليق على الآيات المتعلقة بثواب الصبر:
٦	مركزية الصبر:
٦	سنة الابتلاء لتمييز الصابرين:
٧	الحديث الأول: "الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ ..."
٧	فوائد الحديث:
٧	أولاً: من جهة هديه ﷺ:
٩	ثانياً: كيف يكون الطهور شرط الإيمان؟
١٠	ثالثاً: بيان فضل الذكر، وخاصة الحمد والتسبيح.
١٠	رابعاً: الصبر والصلاة في الحديث وارتباطهما بإنارة طريق المؤمن.
١١	خامساً: قيمة العمل اليومي بالنسبة للإنسان المؤمن.
١٢	الحديث الثاني: "ما أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ"
١٢	فوائد الحديث:
١٢	أولاً: أفضل ما يذخره الإنسان في حياته هو الصبر:
١٤	ثانياً: من جهة الهدي النبوي:
١٥	الحديث الثالث: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ"
١٥	فوائد الحديث:
١٥	أولاً: الدين نصفان: نصف صبر، ونصف شكر

١٥ ثانياً: الشكر والصبر، معنى ثم عمل.
١٨ تعليق على التعجب من حال المؤمن:
١٩ صبر النبي ﷺ تأسيس عملي لأمته على ملازمة الصبر:
٢٠ الحديث الرابع: "لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أُعْطِيَ"
٢٠ فوائد الحديث:
٢٠ أولاً: الهدى النبوي في زاوية ابتلاء النبي ﷺ بفقدان أحبابه.
٢١ ثانياً: أبواب الصبر معانٍ بإدراكها يصبر الإنسان.
٢١ الباب الأول للصبر: إدراك معنى "إِنْ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أُعْطِيَ"
٢٢ الباب الثاني للصبر: إدراك معنى الْقَدَر

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يبارك لنا ولكم في هذه المجالس، وأن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال، نسأل الله سبحانه وتعالى العفو والعافية.

أما بعد؛ نستعين بالله ونستفتح مجلسًا جديدًا من مجالس الاستهداء بالسنة النبوية شرح رياض الصالحين، وهذا المجلس مع باب الصبر.

باب الصبر:

قال الإمام النووي -رحمه الله تعالى-:

باب الصبر

"قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد: ٣١]، والآيات في الأمر بالصبر وبيان فضله كثيرة معروفة."

فوائد مستخلصة من فعل الإمام النووي -رحمه الله- في كتابه:

أولاً: ترتيبه للأبواب:

بعد الحديث عن الإخلاص، والحديث عن التوبة، اختار الإمام -رحمه الله- أن يكون الحديث عن الصبر.

الحقيقة، هذا اختيار موفق؛ لأن الصبر هو من مقامات الدين العظمى، ومن مقامات التعبد الكبرى، والحديث عنه لا يقل أهمية عن الحديث عن الإخلاص، ولا عن التوبة، هذه أعمال كبرى، هذه عناوين عظمى: الإخلاص، الصبر، اليقين، التوكل، الإنابة... هذه خلاصات في الإسلام؛ ولأجل ذلك، من يعتني بهذه الأبواب يكون قد أخذ بطرف من أطراف التفقه في الدين وثيق، فهذا التدارس لهذه الأبواب التي هي أصلاً أبواب مُحَكِّمة في الدين، هو حقيقة من صميم التفقه في الدين الذي يحبه الله سبحانه وتعالى.

والبعد عن هذه الأبواب، والتفقه فقط في الأحكام العملية، هو انصراف عن معنى من أعظم المعاني، ومهما تفقه الإنسان في الأحكام العملية وحدها، دون التفقه في أبواب مثل (الصبر)، يكون قد فاتته من الفقه في الدين ما هو أهم مما تفقه فيه.

ثانيًا: البدء بالآيات:

هذا الباب، باب الصبر، كما ذكر الإمام النووي -رحمه الله تعالى-، فيه آيات كثيرة. بدأ الإمام بالآيات، وهذا الارتباط والتأسيس بين الآيات والأحاديث هو منهج مهم وثيق، ينبغي أن يؤسس عليه الإنسان المسلم؛ فلا يؤسس على الارتباط بالقرآن وحده دون الحديث، ولا على الحديث وحده دون القرآن، ولا على كلام أهل العلم دون الحديث والقرآن، وإنما الذي يجب أن يكون هناك تكامل بين التأسيس على القرآن والحديث، مع بعضهما، ثم بعد ذلك يأتي كلام أهل العلم، ليكون كاشفًا وشارحًا ومبينًا وضابطًا، وما إلى ذلك من المكملات التي لا غنى عنها. هذه البداية من الإمام النووي -رحمه الله- بداية موفقة وطيبة.

تعليق على الآيات المتعلقة بثواب الصبر:

ذكر -رحمه الله- مجموعة من الآيات المتعلقة بالصبر. ويمكن أن نلاحظ في الآيات أن بعضها متعلق بثواب الصبر، ومن أهم هذه الآيات في بيان ثواب الصبر الآية التي جعلت الصبر مفتوح الثواب: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ فهنا صارت مساحة الإثابة مساحة واسعة وكبيرة جدًا.

ومن أعظم الآيات التي جاءت في بيان فضل الصبر - وإن كان لم يذكرها الإمام النووي رحمه الله تعالى وإن كان أشار إلى أن الآيات كثيرة- الآيات التي علقت دخول الجنة على الصبر، وهي آيات متعددة، ومهمة جداً، حيث يُدرك الإنسان أن الله سبحانه وتعالى كأنه اختصر طريق المؤمن إلى الجنة في كلمة الصبر؛ وذلك في أربع آيات في كتاب الله سبحانه وتعالى، منها:

(١) قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَزَلْنَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢]

(٢) وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١]

(٣) وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥]

(٤) وقوله سبحانه وتعالى: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤]

هذه أربع آيات في تعليق دخول الجنة على الصبر.

وأنتم تعلمون أن ﴿وَجَزَلْنَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾، كلمة ﴿صَبَرُوا﴾ هنا لا تنحصر في الصبر على الأقدار المؤلمة، بل ﴿صَبَرُوا﴾ داخلة في عموم طريق المؤمن، الذي لا ينفك عن قضية الصبر؛ فالصبر أمرٌ ملازمٌ للمؤمن، وبه يبلغ الجنة بإذن الله تعالى. فهذا نوعٌ من الثواب الذي ذكره الله سبحانه وتعالى، يُبين مركزية الصبر.

وثبت عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: "الصَّبْرُ نصفُ الإيمان..".؛ فبأبه عظيم وخطير، ولذلك التفقه فيه وفي معانيه أمرٌ في غاية الأهمية.

سنة الابتلاء لتمييز الصابرين:

طبعاً من الآيات التي ذكرها الإمام النووي، تستحق الوقوف كذلك، قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾، فهنا صارت غاية حتى في الدنيا؛ بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قد يقدر الأقدار المؤلمة على الإنسان، لأنه يريد أن يستخرج الصابر من غير الصابر، وهذا طريقه البلاء الذي يقدره الله سبحانه وتعالى.

الحديث الأول: "الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ ..."

ثم قال النووي -رحمه الله تعالى-:

"عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ -أَوْ تَمْلَأُ- مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا." رواه مسلم" [صحيح مسلم: ٢٢٣].

هذا الحديث من الأحاديث التي فيها رجاء كبير، وفيها ثواب عظيم، ومن الأحاديث كثيرة الجمل، قصيرة الجمل، وعظيمة المساحة من ناحية الثواب، وحتى من ناحية الفهم للدين.

وهذا الحديث وقف معه الإمام ابن رجب -رحمه الله- في (جامع العلوم والحكم) وقفة طويلة لشرحه، وبيان ألفاظه، ورواياته، وما إلى ذلك. وكما تعلمون في هذه المجالس سننتقي بعض الأمور، ونركز على هدي النبي ﷺ.

فوائد الحديث:

أولاً: من جهة هديه ﷺ:

النبي ﷺ كان كلامه فصلاً [صحيح أبي داود: ٤٨٣٩ / حسن]، كما تقول عائشة رضي الله عنها: "لو عَدَّه الْعَادُّ لَأَخْصَاهُ." [صحيح البخاري: ٣٥٦٧]؛ وهذا كان من جملة ما يسهل على الصحابة حفظ الأحاديث؛ فالنبي ﷺ يقول كلاماً محدداً، جَمَلاً مرتبة، وكما تعلمون قوله ﷺ: "بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ..." [صحيح البخاري: ٧٠١٣]، يعني جعلت هذه أصلاً سمة من سمات النبوة، فهذه قضية مقصودة، أن يكون كلام النبي ﷺ محدداً وواضحاً ومرتباً وسهلاً؛ وهذا -كما قلت- من جملة الأشياء التي أعانت الصحابة على ضبط الحديث النبوي وحفظه.

وهناك عوامل أخرى أسهمت في ضبط وحفظ الحديث النبوي بالنسبة للصحابة، منها:

(١) سلامة الأذهان، وقلة المكدرات والمشتتات التي تعتري الذهن. وهو أمر لا يختص بهم وحدهم، بل هو عامٌّ في تلك المرحلة، فالأذهان غير ملوثة.

أمّا اليوم، فالذهن في اليوم الواحد تمر عليه ربما آلاف أو عشرات آلاف المدخلات المختلفة؛ نحن لا نقول مثلاً في شبكات التواصل، نحن نقول في الشبكة الواحدة من شبكات التواصل، يمر عليك ما يكفي لأن ينسبك كل ما تحفظ؛ تنتقل من الألم إلى الضحك والفرح في غضون عشر ثوان أو أقل؛ مثلاً في التغريدات، تظهر لك واحدة فيها قصف غزة ودماء تنزف، والتي بعدها فيها مقلب قام به أحدهم لآخر وهو يضحك، والتي بعدها فيها هدف في الدوري الأوروبي، وبعدها إعلان يظهر لك رغماً عنك، والتي بعدها... فأنت تمر في نصف ساعة على كمٍّ هائل من المدخلات المختلفة والمتناقضة، ما يكفي لأن يغيب عن ذهنك كثيرٌ مما تسمع إذا حضرت درساً بعدها.

(٢) كان العرب في تلك المرحلة على البديهة والسليقة، وفي صفاء فطرة، مع قوة انعكاسات البادية؛ هذه لها انعكاسات على النفس، مثلاً نفترض: ذهبت في رحلة لمكان لا إرسال فيه، وجلست عدة أيام، في صفاء جو، وفي هواءٍ نقي، وأمورك طيبة، وجلست أمام شبة النار تتأمل! بعد ذلك، أحدهم قال لك كلمتين أو ثلاثاً، ربما تقرُّ في قلبك وفي نفسك، وتأخذ موضعاً من الانتباه، فأنت تشعر بحالة من الصفاء تمكّنك من أن تنتبه أكثر مما تنتبه لو كان ذلك في يومك المعتاد. فالشاهد أن هذا عامل آخر من عوامل الضبط.

ولذلك، حتى العرب كان أحدهم أحياناً يسمع القصيدة فيحفظها، والأمور عندهم كانت على البديهة والسليقة، هذا أمرٌ ثانٍ.

(٣) المحبة والحرص التام؛ ليست القضية فقط أن أذهانهم سليمة، وبالتالي صافية قادرة على الحفظ، بل الفكرة أنها في غاية الاهتمام، وفي غاية المحبة للمتحدث، وفي غاية الحرص على التقاط الحرف الواحد، وفي غاية الإدراك أن هذا دين، وأن القضية ستترتب عليها أمور كثيرة، فهذا أيضاً أمر له أثره.

٤) حرص النبي ﷺ على الوسائل المعززة للحفظ والوعي أثناء التلقي؛ ومن جملتها التكرار، كان يكرر ﷺ، ومن جملتها أيضاً تنوع الأساليب: كالسؤال، والأمثلة، والأساليب المتنوعة في التعليم التي كان يسلكها النبي ﷺ فتعين؛ وهذا كله يعزز قضية الحفظ.

٥) هذا فضلاً عن كون الأمر ديناً، والله سبحانه وتعالى يرعى دينه، حتى يُحفظ ويبقى صافياً للناس. هذا استطراد، ونحن نحاول في هذه المجالس التركيز على فكرة هدي النبي ﷺ وما يتعلق بتبليغه، وما يتعلق بقيامه بالدين، وما يتعلق بتربيته أصحابه وغير ذلك.

الشاهد أن هذا الحديث تراه سهل الحفظ، مع أنه جمل كثيرة: "الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوْبِقُهَا"، ربما إذا سمعته ثلاث مرات ستحفظه، ولو كان ذهنك صافياً يمكنك ذلك من مرة واحدة، يعني لن تستطيع أن تقول إلا أنه من جوامع الكلم - سبحانه الله -، جميل ومرتب وواضح، وجمله مختصرة، وبعد ذلك تعيش معه في الشرح.

الكلام في الحديث، في الجمل - كما ذكرت - مكانه كتب الشروح، بالوقوف عند كل جملة.

ثانياً: كيف يكون الطهور شرط الإيمان؟

الإيمان هنا البعض فسرهُ بالصلاة؛ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: صلاتكم، فبعضهم فسروه هنا بالصلاة، فالطهور شرط الصلاة، وبعضهم فسرها بغير ذلك.

- إذا كانت الصلاة فالمقصود الطهور الحسي.

- وإذا كان الإيمان بشكل عام، فهل يمكن أن يراد به الطهور المعنوي، الذي هو التخلص من الذنوب والشرك وما إلى ذلك، فيصير التزكية بشقيها، تخلية وتحلية؟

ثالثاً: بيان فضل الذكر، وخاصة الحمد والتسبيح.

بين (الحمد لله) و(سبحان الله) ارتباط، كما أن بين (لا إله إلا الله) و(الله أكبر) ارتباطاً؛ ومن الارتباطات بين (لا إله إلا الله) و(الله أكبر) الارتباط في الأذان، وكذلك الكلمات الأربع مرتبة هكذا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وابن تيمية له رسالة جميلة في بيان الارتباط بين هذه المفردات. وكما تعلمون من أهم الأذكار (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ)، هذه مرتبطة ببعضها. الخلاصة أن هناك ارتباطاً بين التسبيح والحمد.

فهنا بيان شيء من فضل التسبيح والتحميد، وهو فضل عظيم كبير جليل، ينبغي أن يكون سبباً لحرص الإنسان. ومن جملة الأذكار الواردة فيما يتعلق بالتسبيح والحمد، وهي من الأحاديث التي فيها فضل عظيم، والتي هي في صحيح مسلم، كما أن هذا الحديث في صحيح مسلم أيضاً: أن النبي ﷺ كان من جملة ما يذكر به ربه في الصباح: "سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ" [صحيح مسلم: ٢٧٢٦].

لماذا أورد النووي هذا الحديث؟ أوردته لجملة: "وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ".

رابعاً: الصبر والصلاة في الحديث وارتباطهما بإنارة طريق المؤمن.

"وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ"، وقبلها قال: "وَالصَّلَاةُ نُورٌ"، والآية التي تجمع بين الضياء والنور ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]؛ في آية واحدة ضياء ونور. والعلماء ذكروا من الفروق:

- الضياء ارتبط بالشمس؛ فالضياء فيه معنى الإحراق، مع الإضاءة والنور.

- والنور فيه القمر، طبعاً ليس فيه الإحراق، فقد يطلق النور باعتبار النور وحده.

ومن هنا قالوا: إن مناسبة ارتباط الصبر بالضياء كونه محرقاً، وصعباً، ومؤلماً، وشديداً.

لكن من الأمور التي ينبغي النظر إليها في هذا الحديث، فضل الصلاة، وفضل الصبر، في أن فيهما أثراً في إنارة طريق الإنسان؛ سواء في إنارة الطريق الدنيوي الذي يسلك به إلى الآخرة، أم في إنارة

الطريق في الآخرة نفسها؛ لأنه - كما تعلمون - من أهم ما يحتاجه الإنسان المؤمن في الآخرة النور؛ وتعلمون أن الله سبحانه وتعالى ذكر ذلك في سورة الحديد، وفي سورة التحريم في قوله: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الحديد: ١٢]، و﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحريم: ٨]، والاحتياج إلى النور: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]... إلى آخره.

فمن جملة ما ينير طريق الإنسان الصلاة والصبر، وقد يكون هذا في الدنيا، وقد يكون في الآخرة، وقد يكون في كليهما، الله أعلم، فالنص مطلق.

"الصَّلَاةُ نُورٌ"، ولعل من جملة النور الذي في الصلاة أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فهي تنير، تُبعد، تبصّر. وكذلك الصبر، "الصَّبْرُ ضِيَاءٌ".

وهنا كلما تكاثرت الفضائل للعمل الواحد، دل على قيمته وأهميته؛ فلو تتبعنا الأحاديث والآيات الواردة في الصبر قبل ذلك، لوجدنا أن كل نص يزيد لك مساحة لفضل الصبر، لمكانته، لأهميته.

خامسًا: قيمة العمل اليومي بالنسبة للإنسان المؤمن

"كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا."؛ هذه "يَغْدُو" تبين حتى قيمة العمل اليومي بالنسبة للإنسان المؤمن، كما هي بالنسبة للإنسان التاجر الذي يغدو كل يوم؛ أنتم تعلمون أن التاجر كل يوم بالنسبة له مهم، فكل يوم يفتح المكان ويقول: يا فتاح يا عليم، يا رزاق يا كريم، يستأنف يومًا جديدًا في حياته، ينتظر الناس والزبائن والبيع والشراء وكذا... ولو قلت لإنسان منهمك في تجارته: لا تذهب هذا اليوم! فسيكون ذلك ثقیلاً عليه جدًا، لأن كل يوم بالنسبة له مهم ومؤثر، وحتى الذهاب في عمله عمومًا، "كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو..".

وهنا ذكر النبي ﷺ ذلك ليبين أن هذا المعنى المتكرر أصلاً على الذهن يوميًا في حياة الناس العملية، له باب آخر مرتبط بالآخرة؛ "كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا"، فكما تغدو وتروح لأمورك وأعمالك، فهناك غدوٌ ورواح يؤثر في مصيرك؛ فهل أدرك الإنسان وهو يغدو كل يوم من بيته أن غدوه هذا قد يكون سببًا في أن يوبق نفسه في نار جهنم، وأن تكون هي الخاسرة، أو أن يعتقها

من النار ومن عذاب الله؟! هذا معنى إذا استحضره الإنسان يدرك قيمة اليوم، ويدرك أهميته بالنسبة لمسيرته.

الحديث الثاني: "ما أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ"

الحديث الثاني حديث أبي سعيد، سعد بن مالك بن سنان الخدري -رضي الله تعالى عنه-:
"أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِيَدِهِ: "مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعَفِّهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ. وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ". [صحيح البخاري: ١٤٦٩، صحيح مسلم: ١٢٤]

فوائد الحديث:

أولاً: أفضل ما يذخره الإنسان في حياته هو الصبر:

بالنسبة لي، هذا الحديث من أجلّ وأعظم وأهم الأحاديث الواردة في الصبر، غير أن كثيراً من الناس لا يستطيع أن يتصور قيمة هذا الحديث.

هذه الجملة: "وما أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ"، جملة عجيبة جداً في بيان فضل الصبر. وتذكرون عندما كنا دائماً نكرر معنى أن هناك نصوصاً لن يفقهها الإنسان إلا إذا كابدها؛ ستعرف معناها من جهة ألفاظها، ومن جهة بيان حدودها اللفظية، لكن من جهة حقيقة هذا النص، وأن تفقه فعلاً أبعاده وحدوده، فلن تستطيع أن تفقه ذلك حق الفقه إلا إذا عشت أحوالاً مرتبطة بهذا النص، ومن جملة ذلك هذا الحديث: "وما أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ".

ما أنواع العطاءات التي يمكن أن يعطاها الإنسان في الدنيا ما بين حسية ومعنوية؟ لا حصر لها.

تحيل الآن أنواع هذه العطاءات! لا يوجد عطاء يمكن أن تعطاه في هذه الحياة خير من أن تعطى الصبر، لا يوجد! أنت تؤمن بهذا؛ تؤمن به لأن النبي ﷺ قاله، وهذا حديث ثابت صحيح لا شك فيه، لكن القضية ليست هنا فقط -وإن كانت هذه الأساس-، القضية هي أنك لن تدرك فعلاً أنه لا

يوجد عطاء خير من أن تعطى الصبر إلا حين تعيش في هذه الحياة، وتكابد مشاقها وأحوالها، ثم بعدما تتقلب، في طريق الخير، -وهنا لا نتحدث عن الذي يذهب في طريق الشر فهو لا يحتاج إلى هذا الكلام، يعني هذا ليس له وإن كان يحتاجه من الناحية الدنيوية فقط لكننا نقصد من يسير في طريق الخير ويكابد، سواء في مشاق الدنيا، أو في مشاق طريق الآخرة...-، ستعرف أنك مهما أعطيت -حقًا وصدقًا- كل عطاء يمكن أن تعطاه، سيكون فيه نقص، إذا لم يكن معه صبر؛ لأنك في هذه الحياة الدنيا في دار ابتلاء وفي دار صعوبة، فمهما كان من عطاء، تظن أنه سيسعدك أو سيغنيك، أو سيبقى إلى آخر حياتك، فستجد أن في هذه الحياة صفحات مؤلمة، وأن هذا الألم فيه من الخصائص ما يمكن أن يكدر عليك صفحات النعيم الأخرى، فتكون كأن لم تُنعم.

إنسانٌ مثلاً تزوج، وبعد ذلك رزق بذرية، وسعد بالأولاد، ويرى أن هذا هو رأس ماله في حياته، ثم جاء يوم، في حادث سيارة مات الأولاد كلهم معًا، ما الذي تبقى له في الحياة؟ ما الذي يمكنه فعله؟ أين ذهبت الأيام الجميلة؟ أين ذهبت الآمال الكبيرة؟ وكيف يمكنه أن يعيش؟ ولذلك -كما تعلمون- في بعض الأحيان، يحدث للإنسان مثل هذا فينتهي.

هذه صفحة. وهناك صفحة أخرى، وهي الأموال: استمتعت، وبنيت... إلخ. ثم جاءتك أزمة مالية، جاءك شيء آخر... إلخ. الأمثلة لا تنتهي.

حتى في طريق الآخرة؛ أنت الآن بدأت في طريق الآخرة، الأمور طيبة، تستشعر بداية الاستقامة، وتتذوق حلاوة الإيمان... ثم ستكتشف أثناء الطريق أن الأمور صعبة، والطريق طويل، يحتاج إلى ثبات، يحتاج إلى مجاهدة، يحتاج إلى مكابدة، ومفتاح كل هذه المقامات الصبر؛ كلها مفتاحها الصبر، بدونها لا يوجد حل، لا توجد مجاهدة بدون صبر، والمجاهدة هي من أهم أسباب الفلاح، لكن مفتاحها الأول الصبر. وهكذا...

فإذا رأيت من أُعطي عطاء وفرح بهذا العطاء، فوفر في قلبك، أو جاء في نفسك أنك قد نقص منك، أو تتمنى أن تكون قد أُعطيت مثل ما أُعطي، وتكون مع ذلك قد أُعطيت الصبر، فاعلم أنه لم يُعط خيراً مما أُعطيت، مهما كان.

أنت تؤمن بهذا لفظاً، تؤمن بهذا من حيث المعنى، هذا شيء، ثم إذا عشت الحياة، وكابدت فيها، ستعلم جيداً أن أفضل ما يدخره الإنسان في حياته هو الصبر، فهو من أهم ما يمكن أن يعيش الإنسان به سعيداً، من حيث الطمأنينة والسكينة، هو الذي يمكن - بإذن الله - أن يثبت بسببه الإنسان، وهو الذي، وهو الذي... فلا تنتهي الفضائل التي يمكن أن يقولها الإنسان فيما يتعلق بالصبر.

فلأجل ذلك، من كان محروماً من حقيقة الصبر، فليعلم أنه قد حُرِمَ الخير كله؛ فيجب عليه أن يتدارك نفسه، وأن يحاسبها، وأن يجاهدها، وأن يحاول أن يبلغ مع نفسه منازل الصبر، شيئاً فشيئاً، ولو بمجاهدة ضعيفة قليلة الصبر، شيئاً فشيئاً.

فهذا هو المعنى الأهم، وبالنسبة لي هذه الجملة من أهم الجمل في الباب كله.

ثانياً: من جهة الهدي النبوي:

سألوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ "حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِيَدِهِ: "مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدْخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعَفِّهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَعِنْ يَغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ".

لو قال النبي ﷺ هذا الكلام لهم قبل أن يعطيهم لصدّقوا به، ولكن لم يكن لتبلغ قيمته في نفوسهم ما بلغت كما لو قالها بعد ما أعطاهم؛ فهذا أيضاً فيه فائدة: أن الإنسان المصلح، المري - أيّاً كان - المقتدي بالنبي ﷺ في مقامات التأثير على الناس والتعامل معهم، هناك من الحقائق النظرية ما لا يستطيع أن يُبلّغها في الناس حق الإبلاغ إلا إذا أحسن إليهم، أو استنفد ما يمكن أن يستنفده من الوسع والطاقة في تلبية ما يريدون، ثم بعد ذلك تأتي الوصية في موضعها. والكلام كثير.

الحديث الثالث: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ"

ثم الحديث التالي: عن أبي يحيى، صهيب بن سنان -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ." رواه مسلم [صحيح مسلم: ٢٩٩٩].

هذا الحديث كذلك من الأحاديث العظيمة التي تختصر حياة الإنسان المؤمن.

فوائد الحديث:

أولاً: الدين نصفان: نصفٌ صبر، ونصفٌ شكر.

وهذا الحديث يأتي ليلخص حياة المؤمن عبر هذين النصفين، ما بين نصف الصبر، ونصف الشكر، وهما اللذان جمع الله بينهما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٣].

ومن كان صَبَّارًا وشَكُورًا -وهاتان صيغتا مبالغة-، فقد حاز الخير كله. وقبل قليل، تكلمت عن الخير العظيم الذي يناله الإنسان بسبب الصبر، وكذلك الخير العظيم الذي يناله الإنسان بسبب الشكر، فالشكر لا يقل أهمية عن الصبر. والإنسان ما بين نعمة وبلاء، فالبلاء له واجبه، والنعمة لها واجبها:

- أما البلاء فواجبه الصبر.
- وأما النعمة فواجبها الشكر.

ثانيًا: الشكر والصبر، معنى ثم عمل.

الصبر، هل هو عمل يمكن أن يعمل به الإنسان أم هو مجرد معنى في القلب؟ ليس مجرد معنى، بل فيه عمل، والشكر كذلك، ليس فقط معنى، والأهم هو المعنى؛ فوجود المعنى عند الإنسان هو الذي يدفعه لأن يقوم بما للصبر من أعمال، وبما للشكر من أعمال.

فإذا كان الإنسان في نفسه جَحوذاً، فإنه وإن شكر الله على ما أعطاه من النعم بلسانه، فلن يكون محققاً لحقيقة الشكر؛ لأن القضية ليست في أنك حفظت أن من السنن أن تقول إذا أكلت: الحمد لله، لأنك تربيت عليها وأنت صغير، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَ وَسَقَى... إلخ. هذا ليس الشكر أو حقيقة الشكر، وإنما:

حقيقة الشكر: هي الاعتراف القلبي لله سبحانه وتعالى بالنعمة.

وحقيقة الصبر: حبس النفس، والتحمل، والتجلد، وعدم الاستسلام والوهن الداخلي أمام هذه المصائب التي تأتي الإنسان، ثم بعد ذلك يخرج لفظ: إنا لله وإنا إليه راجعون، أو غير ذلك من الكلمات التي تدل على الصبر.

فهي معانٍ داخل النفس، من ينتظمها ستخرج منه دائماً الأعمال الدالة عليها؛ تعلم مثلاً: "مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ" [سنن الترمذي: ١٩٤٥ / حسن صحيح]، فهي معنى ليس مرتبطاً فقط بالله سبحانه وتعالى، بل هو معنى داخلي؛ هل هذه النفس جحود أم هي نفس شكور؟ وصاحب هذه النفس هل هو جحود أم شكور؟

فالذي يتعود على معنى الشكر هو إنسان يلاحظ النعم، والشكر لا يكون إلا بعد ملاحظة النعمة إذا كان معنى. أما إذا كان الشكر لفظاً، فلا يحتاج لملاحظة النعمة، حقيقة الملاحظة؛ لأنه ارتبط بأشياء ظاهرة، لكن السر الأساسي في الشكر هو ملاحظة النعمة، ثم ملاحظة المنعم.

هل يمكن أن يصاب الإنسان بعدم ملاحظة النعمة؟ نعم، يمكن أن يعتاد النعيم، بل يمكن أن يصاب بعكس ذلك، وهو أن يعتبر هذه النعمة نتيجةً لصناعته الشخصية، ولا يرضى أصلاً بأن توصف بأنها نعمة؛ كما في قصة قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

فأول شيء ملاحظة النعمة، أن هذه نعمة، ليست من كدي ولا من كدّ أبي، ثم ملاحظة المنعم، وما ينبغي أن يقدم لهذا المنعم سبحانه وبحمده من مقابلة هذه النعمة بالعمل. هذا المعنى ليس خاصاً بالله سبحانه وتعالى، ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ [لقمان: ١٤]، هو نفس الأمر؛ هل تلاحظ النعمة

التي أعطاهما لك الوالدان أم لا؟ ثم هل تُقدّر حقيقة منزلة الوالدين فتشكرهما بما يليق بمنزلتهما هما أولاً، ثم بقدر النعمة التي ساقها الله على أيديهما لك؟ هذه هي القضية.

المقصود أن الشكر لا يختص بمجموعة من الألفاظ الواردة التي يقولها الإنسان بعد طعامه وشرابه، أو بعد خروجه من الخلاء، أو قبل نومه: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَّلَنَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَّ" [صحيح مسلم: ٢٧١٥]، هذا من أذكار النوم، وكأذكار الصباح: "أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير..." [صحيح مسلم: ٢٧٢٣] إلى آخر الذكر هذا، وغيره من الأذكار التي فيها الحمد... فالقضية ليست مجرد ما يقال باللسان من الحمد والشكر، وإنما حقيقة ما يقع في القلب وفي النفس من الاعتراف بالنعمة.

ومن جملة ما لا ينبغي أن يتركه الإنسان من الأذكار، وأن يحرص عليه غاية الحرص، وهو فيه تجديد بهذا المعنى تحديداً، معنى ملاحظة النعمة واستحضارها قلبياً، سيد الاستغفار؛ لأن فيه "أبوء": "اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتَ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ." [صحيح البخاري: ٦٣٠٦]؛ هنا ليس فقط الحمد لك يا ربي على النعم، لا، "أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ"، يعني أقر وأعترف. وهذا الدليل هو الدليل المباشر على المسألة التي أريد تقريرها في كل ما مضى من الكلام، هذا من أظهر الأدلة على هذه المسألة؛ لأنك تعلم أن "وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ." [صحيح البخاري: ٦٣٠٦]؛ توقن بأنك تعترف بالنعمة، لأنك قلت: أبوء لك، ولم تقل: فلك الحمد لله ربي على ما أنعمت علي، فقط تقول: أبوء لك بنعمتك علي؛ وكأن هناك ثجاء النعم أكثر من واجب، حتى لفظياً: هناك واجب الاعتراف بالنعمة، وهناك واجب الشكر على النعمة. والشكر على النعمة على درجاته: فهناك شكر باللسان، وهناك شكر بالقلب، وهناك شكر بالعمل.

فهذه الخلاصة بالنسبة للشكر. والكلام كثير، لكن هذه فقط إشارة سريعة.

وهذه نصف حياة المؤمن. قد تقول: كيف تصل لنصف حياة المؤمن؟ تصل لنصف حياة المؤمن إذا فهِمْتَ الشكر بهذا المعنى. أما إذا فهِمْتَ الشكر بأنه إذا جاءتك نعمة تقول: الحمد لله، فقط باللفظ واللسان! القضية ليست هكذا، لكن إذا أدركت فعلاً أن مما تقوله يومياً: أبوء لك بنعمتك علي، وتستحضر هنا النعم الدينية، والنعم الدنيوية، وتستحضر العافية، وتستحضر المال، وتستحضر عدم المؤاخذة بالذنب... إلى آخره من الأشياء، فالنعم كثيرة. فهذا هو المعنى.

تعليق على التعجب من حال المؤمن:

المؤمن له حالان، كل عمل منها في وقته هو الحال المفضل، وهذا الحال الذي هو أن كل إنسان ما بين الصبر والشكر، هو حال يدعو للتعجب الاستحساني، أي تعجب الاستحسان؛ فالتعجب أحياناً يكون استنكاراً، كقولك: يا أخي سبحان الله كيف هذا الشخص يعمل هكذا؟!

وأحياناً يكون التعجب استحساناً، كقولك: عجيب! سبحان والله يا أخي ما شاء الله عليك! هذا تعجب استحسان.

هنا النبي ﷺ بدأ الحديث: بـ: "عَجَبًا"، وهذا تعجب استحسان وفعلاً "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ" كله خير كيفما تقلبت حاله: "إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ".

عن أنس رضي الله عنه قال: "لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ الْكَرْبُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَاکْرَبَ أَبْتَاهُ! فَقَالَ: "لَيْسَ عَلَى أَبِيكَ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ"، فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ: يَا أَبْتَاهُ، أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ! يَا أَبْتَاهُ، جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ! يَا أَبْتَاهُ، إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهُ! فَلَمَّا دُفِنَ، قَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْتُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ؟! " رواه البخاري. [صحيح البخاري: ٤٤٦٢].

كأن الإمام النووي - رحمه الله - أورد هذا الحديث لِيُبَيِّنَ شيئاً مما مرَّ به النبي ﷺ من الشدائد. ولا أريد أن أعلق على الحديث في تفاصيله، لكنني أريد فقط أن أشير إلى معنى مهم مرتبط بهذا الحديث، وهو صبر النبي ﷺ.

صبر النبي ﷺ تأسيس عملي لأُمته على ملازمة الصبر:

رأيتُم قبل قليل عندما قلنا تعليقاً على: "وما أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ"؛ قلب حياة النبي ﷺ، ستجد أنها من بدايتها إلى نهايتها كلها صبر! حتى من قبل النبوة؛ يعني أن النبي ﷺ نشأ يتيماً، وهذه القضية ليست سهلة! أن ينشأ الإنسان يتيماً الأبوين، ذلك ليس بالسهل!

ثم بعد ذلك ما تعلمون من سيرته ﷺ، حتى أنه قال كما في حديث أنس: "لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ. وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ. وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ، مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَمَا لِي وَلِبَلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يَوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ". [سنن الترمذي: ٢٤٧٢ / حسن غريب]. وهذا الحديث يبدو لي أنه كان وقت الذهاب للطائف مع بلال رضي الله تعالى عنه.

وعلى كل حال حياة النبي ﷺ كلها صبر، وهذا الصبر استمر إلى لحظة الوفاة؛ فهنا قال: "جَعَلَ يَتَعَشَّاهُ الْكَرْبُ"؛ يعني الموت له كربة، وله شدة، والنبي ﷺ يقول: "لَيْسَ عَلَى أَيْكَ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ"؛ هذا آخر الكربات، وآخر الشدائد، وآخر ما يحتاج إلى صبر، عليه صلاة الله وسلامه.

هذا - كما قلت - فيه التأسيس العملي لقضية ملازمة الصبر من بداية الطريق إلى نهايته.

قد يظن الظأن أن الصبر له مرحلة، يظن الإنسان - مثلاً - أن هناك مراحل صبر، ومراحل تمكين؛ يعني أن التمكين لا يوجد معه صبر! لا، أبداً، بل الصبر أمر ملازم للإنسان المؤمن.

وهذه لفظة جميلة حقيقة من الإمام النووي أنه خرَّج الحديث هنا إلى لحظة خروج الروح؛ فحتى لحظة الموت، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكْرَاتٍ" [صحيح البخاري: ٤٤٤٩]؛ حتى لحظة الموت تحتاج إلى صبر، وهي لحظات ضمن التكليف، وليست خارج نطاق التكليف، فيخرج من نطاق التكليف حين تخرج الروح. فالقصص تأتي مثلاً في كتب التاريخ

والأخبار عن بعض الناس أنه: نَزَلَ بِهِ فَجَزَع، فيمكن أن يسقط الإنسان في آخر اختبار؛ يُخَذَل بأعماله وبدنوبه، ويسقط، فلا يصبر؛ ولذلك هذه القضية التي كان الصالحون يخشون منها، ويُلَازِمون الحذر منها، ويتأكدون. وتعلمون يقال في مرض موت الإمام أحمد حين قال الشيطان له: "فُتْنِي يَا أَحْمَد"، قال: "لا بعد، لا بعد؛ يعني لا يفوته حتى تخرج نفسه من جسده، بعد ذلك يكون الإنسان قد خرج من هذا النطاق.

الحديث الرابع: "لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أُعْطِيَ"

عن أبي زيد، أسامة بن زيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ، وَحِيَّه، وابن حِيَّه -رضي الله عنهما- قال: "أَرْسَلْتُ بِنْتُ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ ابْنِي قَدْ اخْتَصَرَ فَاشْهَدْنَا، فَأَرْسَلَ يُقْرَأُ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: "إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أُعْطِيَ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى، فَلْتَصَبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ"، فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لِيَأْتِيَنَهَا، فَقَامَ مَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَرِجَالٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَرَفَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّبِيَّ، فَأَقْعَدَهُ فِي حِجْرِهِ وَنَفْسُهُ تَقَعَّقُ، فَقَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا؟ قَالَ: "هَذِهِ رَحْمَةٌ، جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ"، وَفِي رِوَايَةٍ: "فِي قُلُوبِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ عِبَادِهِ الرَّحَمَاءَ." متفق عليه.

[صحيح البخاري: ١٢٨٤، صحيح مسلم: ٩٢٣]

"ومعنى "تَقَعَّقُ": تتحرك وتضطرب."

فوائد الحديث:

أولاً: الهدى النبوي في زاوية ابتلاء النبي ﷺ بفقدان أحبابه.

هذا الحديث أيضاً فيه عبر كثيرة، من حيث بوصلة الهدى النبوي في زاوية ابتلاء النبي ﷺ بفقدان أولاده وذريته؛ ففقد أولاده جميعاً سوى فاطمة، وفقد كذلك من أحفاده ﷺ، ومن جملة ما في هذا الحديث، حيث فقد النبي ﷺ ابناً لواحدة من بناته؛ فقد كذلك النبي ﷺ من جيل الأحفاد، فضلاً عن كونه

فقد كثيراً من أحبابه، وأصحابه رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وهذا من جملة ما يحتاج إلى صبر كبير جداً، وصلى الله على نبينا محمد وسلم.

ثانياً: أبواب الصبر معانٍ بإدراكها يصبر الإنسان.

الحديث هذا فيه أمر عظيم جداً، فهو يبين المعنى الذي لأجله يصبر الإنسان، وهو هذا الذكر الوارد، وهو قوله ﷺ: "إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أُعْطِيَ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى". أيهما أسهل أن يستحضر الإنسان معاني هذه الألفاظ أم أن يقول هذا اللفظ؟ أن يقول الألفاظ.

نعلم أن الإنسان أحياناً تصيبه المصيبة فيبكي ويجزن، وأحدهم يقول له: يكفي وقُل: إنا لله وإنا إليه راجعون، يقول: إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أُعْطِيَ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى؛ فيرجع الموضوع لما قلنا من المعنى واللفظ.

أما إدراك حقيقة اللفظ فهو صعب عند المصيبة، وهو الذي إذا حصل فمهما كانت المصيبة تهون، لا أقول تهون بمعنى تصبح هينة وكأنها لا شيء، ولا يتألم منها! لا، بل يتألم منها الإنسان ويتعب منها، لكن لا يمكن أن يكون حال من يستحضر هذه المعاني كحال من لا يستحضرها.

ما هو المعنى؟ معنى خطير جداً، معنى يفتقده المساكين ممن لا يؤمنون، مساكين من كل الجهات، تقول: كيف يصبرون؟

الباب الأول للصبر: إدراك معنى "إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أُعْطِيَ"

أنت ما تعريفك لابنك؟ قبل أن تُعرِّفه بأنه ابنك تُعرِّفه بأنه عطية من الله لك، الله الذي أعطاك إياه، هذا تعريف؛ فعندك تعريفان، تعريف: أنك أبوه وأنتك السبب في وجوده، وعندك تعريف قبله: وهو أن الله أعطاك إياه؛ فهنا أنت لك يد، وتشعر أنه تبع لك، لكن هناك قبل ذلك نسبة أهم منها، ملاحظة هذه النسبة هي التي تعين على الصبر؛ فأنت عبدٌ لله وابنك عبدٌ لله، والله أعطاك هذا. فإذا جاءت المصيبة، مصيبة الموت، فأنت تستحضر أن الله أخذ ما أعطاك.

فرق بين هذا وبين أن تشعر بأنه ملكك التام، هذا الولد ملكك، فعندما يأخذه الله سبحانه وتعالى تشعر كأنه أخذ ملكك! هنا يكون صعبًا؛ فيأتي من الناس من يقول: لماذا يا ربي؟ ما الذي فعلته يا ربي؟ لماذا يحدث هذا؟ كما نرى كثيرًا من الناس يقولون ذلك. وهناك إنسان يأتيه البكاء الذي هو بكاء حزن على فراق الحبيب، الخلطة، الرحمة، وأنه كان مؤتملاً أشياء... هذا كله عادي ما دام بحدود؛ لم يحدث صراخ، أو شق للجيوب، أو اعتراض بالألفاظ، هذا كله عادي.

هذا لا يكون إلا عندما تُعرّف هذه الأمور التي لديك، سواء من ناحية الأموال أو الأولاد، على أنها، قبل أن تكون لك، هي عطايا من الله، والله أخذ ما أعطى، وهذه ميزة هذا الذكر: "إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أُعْطِيَ".

هذا الآن بابٌ من أبواب الصبر، حتى نؤكد أن الصبر حقيقةً هو إدراك هذه المعاني، أي لن يكون الصبر إلا بإدراك هذه المعاني.

الباب الثاني للصبر: إدراك معنى القَدَر

الباب الثاني للصبر تتمه الذكر، "وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى"؛ أي القدر.

فهما أمران:

(١) الأمر الأول: الله الذي أعطى هو الذي أخذ.

(٢) الأمر الثاني: أن ما جرى الآن هو ليس أمرًا مفاجئًا، وإن كان مفاجئًا لك، لكنه بالنسبة لله هو أمرٌ مكتوب، ومقدّر، ومرسوم، أقصد محدّد. وهذا الأمر المحدد قد أخبرنا الله سبحانه وتعالى عنه على سبيل الإجمال، وإن كنا لا نعلمه على سبيل التفصيل؛ هناك آيات كثيرة يخبر الله سبحانه وتعالى فيها بالقدر. فهذا من جملة التكليف والاختبار الذي يُختبر به الإنسان؛ هل يستطيع أن يستحضر مثل هذا فيصبر، أم لا يستطيع؟

ونسأل الله سبحانه وتعالى العفو والعافية والمغفرة والرحمة، وصلِّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.